مجرّد إنسان ...

قصة يمانية بقلم
محمد احمد عبد المولى

كان الوقت يقترب من الظهر ، وكنا نسير ، بعد ان فقدنا الامل في ان نجد الصديق الذي ذهبنا لزيارته .

كان ذلك خارج أديس ابابا حيث تمتد غابة صغيرة يخترقها نهر جف لان أمطار الصيف لم تتساقط بعد .

وبجانب الطريق جلس عشرات من الرجال السمر ينحتون في الصخر أحجارا مربعة ومستطيلة بطريقة هندسية بارعة .

الشمس ترسل أشعتها برقة ، ونسيم رطب يهب علينا من خلال اشجار الغابة . وعرق بارد يتصبب من وجوه وأجسام سمراء ، أرهقها الصخر كما أرهقتها سنوات عذاب شاقة لكسب قوت يوم لافواه صغيرة تتطاير انواع ذباب حولها ، وكنت أرى أي حياة وأية مسرة يجدها هؤلاء الرجال ناحتو الصخور . هؤلاء الذين تنحت فيهم الايام بل الساعات ، عيونهم العميقة تحمل معاني ألم دفين لكنها تتشبث بالحياة باصرار وخوف .

ـ بكم الحجرة يا رجال ؟

قالها صاحبي وهو ينظر الى العيون المتعبة .

ـ أيتها ؟

أجاب صوت متعب برنة أمل في كسب قوت ذلك النهار :

ـ هذه ...

وسمعت أصوات تتهامس ، وعيون تحملق في الحجر الاجوف وفي الرجل الذي أثار الامل فيهم .

ـ تلك ... الحجرة بريالين .

وصمت قليلا وراح يرسل نظرات فيها حياء وأمل في صاحبي الواقف بجانبي .

ـ ولكن كم حجرة تريد ؟ ربما استطعنا مساعدتك ؟

كانت كل الايدي السمراء قد توقفت عن العمل وراحت عيونهم ترسل نظراتها الباردة الينا .

ـ أوه ذلك ثمن مرتفع ، ثم ان منزلي بعيد وصعب ايصال هذه الاحجار اليه .

وتركنا العيون السمر . وكانت همساتهم قد فقدت الامل في قوت ذلك النهار . ولكن السواعد عادت باصرار الى نقر الصخرة . وعاد الرجل الذي كان يحادث صاحبي الى مكانه وهو يلعن في اعماقه كل اولئك الذين لا يشترون عرقه .

عبرنا النهر في طريق العودة . كان جافا يلهث من العطش ، واشجار صغيرة تقاوم الموت باصرار ، ولكن المطر اخلف موعده هذا العام .

ونحن نخترق الغابة بحثا عن الطريق الى السيارة ارتفع صوت مرح :

ـ ايه ... ايه ... يا رجال الى اين ؟

من خلف شجرة كافور لمحت شبح رجل قصير ونحيل في ملابس رجل الجيش يشير الينا ولمحت على شفتيه شبه ابتسامة .

ـ السلام عليكم .

وأجبناه بصوت واحد :

ـ وعليكم .. ايه يا خبير ماذا تعمل هنا ؟

وأقبل الرجل القصير نحونا وكان في مشيته يتراقص يمينا ويسارا ومرح طفولي يلمع من عينيه .

وبحب فياض أقبل مادا يديه وهو يضحك ، هازا أيدينا بقوة شاب فتي وكأننا اصدقاء عمر طويل التقينا فجأة بعد طول غياب في طريق جانبي من طرق حياتنا .

قال بصوته الضاحك وهو يتحدث بعربية مكسرة مدخلا في كلامه الكثير من الكلمات الحبشية .

ـ يت نبراشو (١) ؟ الجو طيب هنا أليس كذلك ؟

ابتسمنا . ورحنا نبحث عن ظل نجلس عنده وكانت شجرة كافور .

وسألته باسما :

ـ أنت عربي أم أثيوبي ؟

وضحك قائلا :

ـ آلاو قيم (٢) ... فانا في ملابس جندي في الجيش .

ـ وماذا تعمل هنا ؟

ـ أوه ! اعلم الجنود هناك على ضرب « الطبنجه » (٣) و « المترليوس » (٤) في القرب من ذلك المكان . تحبوا تشوفوا ؟ هيا.

وقفز بنشاط من مكانه ولكننا لم نتحرك ، وعاد الى مجلسه . كانت النسمات تهب والرجل جالس أمامنا وقد بدأ قلق ما يغمر وجهه.

سألته حتى أقطع الصمت الذي هبط فجأة :

ـ من اين انت ؟

ـ من أين ؟.. من هنا !!

ـ لا .. أنت يماني .

قهقه بصوت مرتفع وكان ذلك بصورة مفاجئة :

ـ ها .. ها .. ها .. يماني .. كنت زمان ، ذا الحين جندي في الجيش حق النجاشي .. ها .. ها ..

قال صاحبي :

ـ كم لك هنا ؟

ـ والله شبت ولا أعرف كم لي ، من زمن الطليان يمكن .. من قبلهم .. يمكن .

ـ كم راتبك في الجيش ؟

ـ أوه .. الله يلعنهم ، قليل ، من قبل كان ثلاثين « بر » (٥) وذا الحين أربعين .

ـ تكفيك ؟

ـ من فين ؟ شوف مثلا ، لو طلبت منك حق القات الان ، هذا مجرد مثل ، معنى ذلك ان الفلوس ما تكفينا .

وابتسمت وقلت له :

ـ طيب من أي مكان انت من اليمن ؟

ـ من فين ؟

---

(١) أين كنتم ؟

(٢) لا اعرف .

(٣) بندقية .

(٤) رشاش « كلمات حبشية » .

(٥) دولار بالعملة الحبشية .

وحك رأسه ورمى بعينيه بعيدا كأنه في محاولة عنيفة للتذكر وقال فجأة :

ـ من فين .. من هنا ، ألم أقل انني حبشي ؟

وضحك وراح يحملق فينا ..

ـ لا أدري ، ربما ولدت هناك في اليمن.. وربما لا .. يمكن هنا، ماذا يهم الان ..

ـ ولكن ألا تذكر شيئا ؟

ولمحت على جبينه خطوط الزمن العنيفة .. وهز رأسه ولمحت أسنانه المكسرة في محاولة يائسة لصنع الضحك :

ـ أتذكر .. انا من جبله . تذكرت الان من مدينة السيدة بنت احمد (٦) لقد نسيت معالم البلاد..

واشار الى فمه الذي بدا كجهف مهجور تمرح فيه حيوانات مخيفة وكان هناك ثلاثة اسنان قذرة ارتكزت كقلاع حصن تهدم تحت ضربات جيش منتصر ..

ـ شوفوا .. مشينا ، ونسينا كل شيء .

وحك رأسه من جديد ، وكان قد نزع من على رأسه قبعته العسكرية فبدت شعرات بيضاء . كان رأسه مسرحا لجرح مخيف بقيت آثاره كتاريخ حي ..

وقال مشيرا اليه :

ـ كنا « شفته » (٧) .. كان هذا من زمان .. نهبنا كثير ولكن « الشفته » ما معاهم بركة .

ـ كنت تنهب اذن ؟

وضحك بمرح وأصابع يديه تلعب بالقبعة وقال :

ـ و « جدلنا » (٨) كمان ناس كثير ، شوفوا ابن الشيخ سالم هذا كل الذي حصله من فلوس كلها كنت انا السبب ـ وضرب صدره بقبضة يده بقوة ـ كل هذه الثروة انا السبب فيها ، لكن نصيب ، هو في السماء النـاس تبوس يده وتقول سيدنا ـ جيتوش ـ (٩) ويذبحوا له الذبائح ويحترموه .. الزمن ملعون ، شوفوا انا الذي كان السبب في كل فلوسه ، اليوم ما يعرفنا يمكن حتى لو شافنا ما يتذكرنا .

وصمت . وراحت عيونه تبحث في الماضي البعيد .

عندما كان يتحدث كنت أرى سرورا عميقا يرتسم على صفحات وجهه ، ربما لانه وجد اناسا ليستمعوا الى حديثه .

تربع فجأة على الارض فوق التراب ، كان قد قرر ان يستمر في ذكرياته .

ـ شوفوا ، كان هذا زمان ، لكنا تعبنا ، درت الحبش كلها ، رحت « جمه » أجارو و.. و... وراح يعدد اسماء مدن وقرى ومقاطعات لم اسمع بها من قبل .

ـ في بلاد الولو مثلا .. كان في واحد ذبحاني ... لكن رجل.. كل الاحباش كانوا يحترمونه . كان شجاع يصيح يخاف الاسد من صوته . وكان معه بنت زي القمر .. ذا الحين قدها « تتشرمط » قلنا له اعطينا البنت ، قال اجلس معي هنا في الدكان ، شراكة الشيطان ملعون ، قلت لا يا وليد روح دور في بلاد الله ، أجاء « الشفته » وقتلوا الذبحاني ونهبوا دكانه وبيته . كان غني معه يمكن عشرين الف « بر » اليمنيين كلهم مضيعين ما معاهم حكومة تبحث عنهم هذا ترك اربعة اولاد صغار ، ذا الحين قدهم مع الكريستيان (١٠) الحبل (١١) معلق في رقبتهم واختهم راحت فتحت لها « طج بيت » (١٢) .

كانت الذكريات تعذبه ولكنها كانت عذبة وهو يحكيها لنا لعله لم يجد اناسا يجلس اليهم ويحكي لهم حياته .

ـ تعرفوا رحت كل مكان شف الحدود حق السودان وحق بلاد ثانيه .. هناك ما يدفنوا الميت ، لما يموت واحد منهم يأكلوه ، ما عندهم مقابر ، لكنهم رجال ما يخافوا زي النمارة ، العيون حقهم حمر و ....

وقاطعه صاحبي :

ـ طيب ما تشتهي ترجع اليمن ؟

ظهرت سحابة حزن ، وسرعان ما عاد وجهه الى طبيعته :

ـ وأيش نعمل هناك ، لا اهل ، ولا اولاد ولا احد . الله يعلم أيش حصل لهم .. دخلت اثيوبيا وانا ابن اثني عشرة سنة . خلاص الان قد نحنا « ايمارى » (١٣) نخدم الامبراطور ونحصل ماهية . زمن الطليان تعلمنا الضرب على « المتراليوس » والطبنجه وكل حاجة . تعرفوا انا كنت في الجيش حق الطليان وبعدين هربت ... قوموا با أريكم كيف اعلم الجنود . هنا قريب ـ واشار بيده ـ هنا .. عند الشجر .

كانت الشمس حارة والسماء صاحية ووجه الجندي المجعد الذي يدل على ان عمره قد تعدى الستين ولكنه محتفظ بنشاطه وحيويته يرسل عرقا باردا .

وقال فجأة بعد ان صمت بعض الوقت :

ـ هنا الدنيا حر ، تعرفوا كيف ينام الناس هناك ..

واشار ناحية الغرب ..

ـ كلهم هناك عرايا حتى الحريم ، بس ورقةواحدة في الوسط . وفي الليل برد كثير كلهم يناموا سوا وفي الوسط يحرقوا الشجرة .. عرفتم يعملوا دائرةوالنار تدفيهم.. كلهم سوا سوا..«الشماجلي» (١٤) و «الليجوش» (١٥) و «السيت» (١٦) يدفئوا بالنار وبيتهم .

وضحك كثيرا وهو يقوم ..

ـ انا كمان نمت معاهم .. البنات هناك ملاح ، كلهم عرايا ، بس ورقه .. الصدر مثل الرمان كم قطفنا .

وضحك .. كان هذا زمان .. زمان .

كنت انظر اليه وكان مرح طفولي يختلط بنوع غريب من الحزن وكانت الكآبة تحوطني .. يا الهي لقد فقد الرجل حتى لغته .

وسألته :

ـ والان ايش باتسوي ؟

---

(٦) السيدة اروى بنت احمد الصليمية .

(٧) قطاع طرق .

(٨) قتلنا .

(٩) مولانا .

(١٠) المسيحيين .

(١١) اشارة الى ان المسيحي في الحبشة يربط حبلا صغيرا حول عنقه ليتميز عن المسلم .

(١٢) البيت الذي يبيع الخمر والجسد

(١٣) امهري ، اي مسيحي .

(١٤) العجائز .

(١٥) الاولاد .

(١٦) النساء .

فـي البحـرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

مـن

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي

ـ ولا حاجة .. أروح اعلم العسكر ..
والتفت الينا فجأة وقال :
ـ هل عرفتم « جبله » (١٧) ؟
أجابه صاحبي قائلا :
ـ نعم لقد درست فيها زمان .
وراح يخط على الارض شيئا اشبه بالخارطة قائلا :
ـ من العدين تطلع طلع .. وهنا جبل المعاكر وفي الجنوب تعز وجبل صبر وتحت تقع مدينة اب .. و و ..
وقاطعه الجندي قائلا :
ـ زمان .. زمان كل شيء اصبح بعيدا .
واراد ان يستمر الا ان صاحبي نظر الى الساعة ثم وقف فجأة وقال :
ـ ما تروح المركانه ؟
ـ الا .. في هناك ناس اعرفهم ، وهم ما يحبوني لاني عسكري كريستيان ...
وقبل ان ينهي كان صاحبي يمد له يده مودعا :
ـ لما تاتي المركانه اسأل عنا .. يمكن نقيل (١٨) سواء .
قال الجندي بصوت حزين :
ـ ان شاء الله ...
ثم اضاف بصوت هادىء :
ـ ما تشتو تشوفوا كيف نعلمهم ضرب النار . (واشار) . هنا .. هنا قريب
ـ لا .. مرة اخرى نحن مشغولين
وبحركة نشيطة ادى لنا التحية العسكرية . ورأيت خيبة امل ترتسم بعمق على صفحات وجهه الصغير .
وغادرنا الى محل تدريبه ولمحته من خلف اشجار الكافور في تلك الغابة الصغيرة وهو يؤدي التحية العسكرية لجندي اخر ربما كان اعلى منه رتبة وحمل الريح صوته وهو يعتذر عن التأخر .
كنا نسير . وكنت في المؤخرة . ورحت افكر في مصير احدنا نحن الضائعين في بلاد الاخرين وقال صاحبي
ـ لقد شرب الرجل قبل ان يأتي الينا .
ونظرت اليه وهو يسير امامي : كان هو الاخر يفكر في ذلك الانسان الذي سوف ننساه بعد ساعات .
وقلت .
ـ لم يبق له من امل سوى ان يشرب ويشرب . لقد فقد كل شيء . بلاده . لغته واصله حتى الامل ، دعه يشرب انه مجرد انسان ضائع كمئات اخرين في هذا العالم .. امله الوحيد على الارض كأس من الخمرة الرديئة وربما جسد امرأة
وضحك صاحبي قائلا :
ـ تلك هي نتيجة الجهل
وأضفت :
ـ والهروب الى بلاد الاخرين .
كانت السماء صافية . ورأيت عصافير صغيرة تحلق في الافق ، وكانت ثيلات صغيرة وجميلة ضائعة في وسط حدائق خضراء
ولمحنا السيارة . وعندما انطلقت بنا كانت بيوت صغيرة على ابوابها ستائر من نساء وقفن مرهقات يبحثن عن ذبون وربما كانت تلك الفتاة التي حدثنا عنها الرجل واقفة هنا ايضا ..
وراحت السيارة تخترق شوارع العاصمة ..
وانسان ما كنا قد نسيناه يقبع هناك في الغابة يبحث عن شخص ما لينهي له قصته .

صنعاء **احمد عبد المولى**

(١٧) مدينة مشهورة في اليمن كانت مقرا للملكة أروى بنت احمد الصليمية .
(١٨) نقيل .. اي نمضغ القات سويا .

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح

صدر منها :

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٢ ـ ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا
ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تأليف مرغريت دورا
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٤ ـ لكل حقيقته

تأليف لويجي بيراندللو
ترجمة جورج صرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٥ ـ تمت اللعبة

تأليف جان بول سارتر
ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت